الإســـلام:
الفكرةُ والدعوةُ والبلاغ

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾

عبد الرحمٰن السالمي

عندما نقول: إنّ الإسلام فكرة؛ فإنّ معنى ذلك إسلام الوجــه للّٰه ﷻ وجــوداً وتوحيداً وعبــادة. قال ﷻ: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. أما الدعوة للفكرة أو الاعتقاد، فيوضحها قوله تعالى في عدة آياتٍ؛ منها: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾. فالفكــرة أو الاعتقــاد: الوحدانيــةُ والعبادة. وهذان الركنان هما اللذان تقوم الدعوةُ إليهما من جانب الأنبياء والمرســلين. وقد أوضــح ﷻ معنى الدين أو الدعوة (إلــى الوحدانيــة والعبادة) عندما قــال: إنه أوصى بذلك ســائر أنبيائه ورســله منذ نــوح، وكان المطلوب وما يزال: إقامــة الدين، وعــدم التفرق. لمــاذا ينهى ﷻ عن التفرقة والافتراق، وكيف يحصــل ذلك أو يمكن أن يحصل؟ يحصل الافتــراق ـ كما هــو واضحٌ مــن تاريــخ الدعوات ـ

بالإخلال بشروط الوحدانية، أو الاختلال في شروط العبادة. فالمشركون قالوا عن الأوثان: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، وهذا يعني أنّ العبادة أو القُرُبات إنما ذهبت لغير من يستحقُّها وهو الواحد الأحد.

كيف ظهرت هذه الشبكة الضخمة من النظم التي عُدّت جميعاً في الأزمنة المتعددة جزءًا من الدين؟

جاءت النظم والترتيبات من جهة البلاغ؛ فقد قال الله ﷻ: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾. وقال صلواتُ الله وسلامُهُ عليه: (**بلِّغوا عني ولو آية**). ولذا فقد كثُر المتطوعون الذين أرادوا تعليم الناس دينهم، ونشْرَ الدعوة؛ استجابةً لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، وكان المبلِّغون هؤلاء يُسمَّون في زمن النبي ﷺ ومن بعده: القراء؛ لأنهم كانوا يركّزون على تعليم الناس القرآن، وتعليمهم فروض العبادة، وأخلاق رسول الله ﷺ وقد كان خُلُقُه ـ كما قالت السيدة عائشة ـ القرآن.

وقد واجه هذا البلاغ تحديين اثنين: تحدي تعدد الأساليب، وتعدد المعلِّمين، وتعدد المناهج. والتحدي الآخر: تحدي السلطات التي رأت أنها تملك أيضاً تكليفاً برعاية الدين بداخل دار الإسلام وخارجها. ومن الطبيعي أن ينحاز للسلطة بعض «حملة العلم» هؤلاء؛ لأنّ الدولة كانت تُعيِّنُ من بينهم القُضاة والقُصّاص وأهل الحسْبة وأئمة المساجد الجامعة. وكانت هناك فئة أُخرى من «حملة العلم» ترى رأياً في معارضة السلطات باسم الدين لاتباعها اتجاهات سياسية أُخرى. بينما أصرَّت فئةٌ ثالثةٌ على ممارسة الدعوة باستقلالية دونما تعرُّضٍ للشأن السياسي مع السلطات أو ضدَّها، فتوسعت لديها المذاهب الفقهية كل بحسب اتجاهه وعقيدته، فتشاركوا فيها تمثيلاً متنوعاً لكل أطياف المسلمين، فحفظت وحدتَهم وأبْقت الدين في حضن المجتمع كتاباً وسُنّةً، كما أثّرت التعددية الاجتهادية في الفروع وأبقت على التضامُن والمشتركات العامة للمسلمين والإسلام.

لقد أمكن إذن ـ مـن طريق إبقاء الديـن في حضن المجتمـع ـ تجاوُز الكثير من عثرات الانقسام حول السلطات، وحول اختلاف العلماء. إنما كيف واجه البـلاغ التحديين الثالـث والرابع: التحدي الثالث هـو تحدي الإيمان والعمل. والتحدي الرابع: التنظيمات الضخمة نتيجةً لاتّساع حضارة الإسلام، وصيرورتها حضارةً عالمية.

في جانب التحدي الثالـث: كان ذلك أمراً شـديد الصعوبة؛ لأنه يتصل بالاعتقاد؛ فقد ذهـب معظم المتكلّميـن والفقهاء إلى التـلازم بين الإيمان والعمل، فقالوا: إنّ الإيمان اعتقادٌ بالجنان، وقولٌ باللسـان، وعملٌ بالأركان؛ لكنهم اختلفوا في مدى الاختلال الذي يطرأ على الإيمان إذا طرأ اختلالٌ على العمل؛ أبو حنيفة وحـده قال: إنّ الإيمـان تصديق، ولا تأثيـر للعمل فيه أو عليه، أمـا كل الآخرين فتراوحت مذاهبهم بين التفسـيق والتكفير، ولم تجد المشكلة حلاً عبر العصور، وأحسب أنّ جزءًا من مشكلة الغلوّ والتكفير اليوم سببها سوء استخدام هذا المفهوم، ففي كل فترة تظهر جماعات تقول بالربط المحكم بين الإيمـان والعمل، وتقاتل الناس على الديـن دون حق؛ لأنّ دين الحق هو دين جماعة المسلمين.

أما التحدي الرابع فيتمثّل في ضخامة النظم، وضخامة مطالب التطبيق، فهذه التنظيمات والأعراف الأخلاقية والفقهيـة والإدارية، والتي ظهرت عبر العصـور، اعتبرهـا كثيرون جزءًا مـن الدين، وهـي في الحقيقـة جزءٌ من التديُّن. وقد ثار عليها الإصلاحيون والأُصوليون بعدِّهم إياها تقاليد فاسدة أو متجمدة، لكنهـم أحلُّوا محلَّها إسـتراتيجية التأصيل، وقـد ترتبّت على ذلك أنظمـة هجينة، صـارت تدّعـي العصمة والمناعـة، وتخالف معنـى الدعوة والبلاغ. إنه ليس هناك أفظع على الناس ودينهم من الاعتقاد كلَّ الوقت بأنّ الشـريعة (= الدين) غيـر مطبَّقة، وأنه لا بـدَّ من تطبيقها، وهـذه مُغالطةٌ كبرى؛ لكنها صارت اعتقـاداً لدى فئاتٍ واسـعةٍ من المسـلمين، ولا بدَّ من نقدها ودحضها ليسلم على الناس دينهم وجماعتهم وإسلامهم.

لا بدَّ من أجل استعادة السكينة في الدين من العودة إلى أصل الفكرة والدعوة والبلاغ. والدعوة دعوة إلى الوحدانية والعبادة. وتتّسع العناية في البلاغ إلى استخلاف الإنسان لإعمار الكون. وقد انتشر البلاغ في العالم، وصار المسلمون جزءًا من مجتمع العالم وحضاراته ونظامه. والمشكلات الحاصلة هي عبارةٌ عن خليط من موروثات التجربة، ومن متغيرات العالم الواردة. وقد انصبّ الاجتهاد في البلاغ في الأزمنة الحديثة أولاً على تجاوُز مواريث التجربة باتجاه التجديد والتلاؤم. لكن الصراعات الأخيرة ناتجة عن أمرين اثنين: جذريات التغيير العالمي، أو تغيُّر فِقه الحياة وترتيبات العيش، والأمر الآخر: عدم قدرة الأجيال الشابة من المسلمين أو بعضها على التلاؤم. فلا بدَّ من أجل «حفظ الدين على أُصوله المستقرة» من العودة إلى أصول البلاغ، بلاغ الدعوة الإبراهيمية.